أصول التربية والتعليم
كما رسمها القرآن الكريم

إعـــداد

د/ أحمد بن أحمد بن شرشال

أستاذ القرآن وعلومه

بجامعة الكويت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

أصول التربية والتعليم وأثرها فى بناء الشخصية واتزانها كما رسمها القرآن الكريم

إن صلاح الإنسان لايستقيم إلا إذا صلح تعليمه، لأن التعليم هو الذى يطبع المتعلم بالطابع الذى يريده المعلم، ولاينفع هذا التعليم إلا إذا رجعنا به إلى التعليم النبوى فى شكله وموضعه، وفى مادته وصورته، كما كان يتعلم النبى ﷺ من جبريل، وكما كان يعلم أصحابه - رضى الله عنهم - فقد صح عنه ﷺ أنه قال: **«إنما بعثت معلماً»** .

❐ وإن مناهج الدراسة ومقرراتها فى الجامعات قد نأت عن هذا وتضمنت مواد جافة مجردة من الحوافز التى تدفع الطالب للعمل بما علم، ولاتعطى الثمار المرجوة منها، فهى أشبه بالصنعة التى يتعلمها أى إنسان آخر.

❐ ثم إنها لم تكن واضحة المعالم عند الطالب، ولاهى عند الأستاذ الذى تصدّر للتدريس، فلا تحدث فى نفس الطالب انفعالاً لهذه المادة أو تلك، ولاتولد في نفسه حرارة الإيمان، ولاتزوده يزاد التقوى، ولاتحدث فى نفسه ذكراً، بخلاف ماإذا ربطنا صناعة التعليم ومناهجه بفعل النبى ﷺ ومنهجه وطريقته.

❐ وإذا أردنا أن نصحح اتجاه الأمة فلنبدأ بتصحيح المناهج التعليمية كما رسمها القرآن الكريم، فقد تضمن أصولاً وقواعد غابت عن أذهان علماء التربية والتعليم .

❐ ومن ثم كان من الواجب علينا قبل الإقدام علي وضع نظم المناهج التعليمية أن نتلمس هدى النبى ﷺ ومنهجه فى التربية والتعليم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

❐ إن صفة منهج النبى ﷺ فى التعليم، قد رسم القرآن معالمها الكبرى، واستقل ببيانها، وفصلتها السنة النبوية .

❐ قال تعالى - فى بيان صفة هذا المعلم ومنهجه - فى سورة البقرة: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون﴾(١). وقد قال فى سورة آل عمران: ﴿لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾(٢).

❐ فقد صرحت هذه الآيات بالمنهج العام لأصول التربية والتعليم الذى لامنهج سواه، والذى لاينبغى أن يتغير أو يتبدل، وهو منهج أصيل يسعد الإنسان فى دنياه وأخراه، لأن منزله هو الخالق لهذا الإنسان، العليم بطبيعة تكوينه، الخبير بدروب نفسه ومنحنياتها .

❐ وقد جاء هذا المنهج مطابقاً لدعوة إبراهيم عليه السلام، وقد حكى القرآن نص الدعوة فقال: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾(٣).

ولقد حقق الله دعوة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - ووافقت قدر الله السابق، ولذلك قال ﷺ: «أنا دعوة أبى إبراهيم وبشارة أخى عيسى بى»(٤).

---

(١) سورة البقرة: الآية رقم ١٥١ .

(٢) سورة آل عمران: الآية رقم ١٦٤، ومثل هذه الآية الثالثة فى سورة الجمعة .

(٣) سورة البقرة: الآية رقم ١٢٩ .

(٤) تفسير ابن كثير: ١/١٩٧، القرطبى: ١/١٢٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

❐ ولقد بين القرآن أن هذا المنهج وماتضمنه من مقررات لم يكن مقصوراً على الموجودين مع النبى ﷺ، بل هو صالح لكل من يأتى بعد النبى ﷺ من العرب والعجم، ولم يكن يومئذ قد ولد، فقال: ﴿**وهو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم**﴾(١).

❐ **والمراد بالآخرين منهم لما يلحقوا بهم:** هم كل من يأتى بعد الصحابة - رضى الله عنهم - إلى يوم القيامة يتلوا عليهم ويتلوا على الآخرين ويعلمهم، ويعلم الآخرين الكتاب والحكمة، ويزكيهم ويزكى الآخرين.

قال القرطبى: «لأن التعليم إذا تناسق إلي آخر الزمن كان كله مسنداً إلى أوله، فكأنه هو الذى تولى كل ماوجد منه»(٢).

❐ فمنهج التربية والتعليم في القرآن موصول ومتواصل لاانقطاع فيه، ولذلك جاء عقب نص دعوة إبراهيم - عليه السلام - أن من لم يقبل هذا المنهج وانحرف عنه يعد سفيهاً، فقال - عز من قائل -: ﴿**ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين**﴾(٣)، أى امتهن نفسه واستخف بها وظلمها. وماأكثر السفهاء اليوم لتنكبهم عن هذا المنهج الربانى، ولن يكون أحد دالاً في دعوة إبراهيم وإسماعيل حتى يمتثل ويقبل هذا التعليم الجامع بكامل مفرداته ومقرراته، لأن القرآن سماه سفيهاً .

❐ إن الإنسان مهما كان مقامه عالياً ومنصبه سامياً لايستغنى عن التعليم، فهذا نبي الله داود-عليه السلام-من حصوله على الملك والنبوة لم

---

(١) سورة الجمعة: الآية رقم ٢، ٣ .

(٢) الجامع للقرطبى: ٨٣/٩ .

(٣) سورة البقرة: الآية رقم ١٣٠ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يستغن عن تعليم الله إياه قال تعالى: ﴿وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء﴾(١).

وهذا موسى يلتمس من العبد الصالح أن يرافقه ليتعلم الرشد. قال تعالى: ﴿قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا﴾(٢).

وكان ﷺ لايعرف هذا الكتاب المنزل، ولم يكن يتلو أى كتاب قبله، ولم يكن يعرف الكتابة.

قال تعالى: ﴿ماكنت تدرى ماالكتاب ولاالإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا﴾(٣).

وقال: ﴿وماكنت تتلوا من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون﴾(٤).

□ وكان أهل الكتاب يجدون فى كتبهم أن محمداً ﷺ لايقرأ ولايكتب. قال تعالي. ﴿الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل﴾(٥).

□ وقد علمه الله مالم يعلم، وأنزل عليه الكتاب. قال تعالى: ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم﴾(٦).

وطلب منه المزيد: ﴿وقل رب زدنى علماً﴾(٧).

---

(١) سورة البقرة: الآية رقم ٢٥١ .

(٢) سورة الكهف: الآية رقم ٦٦ .

(٣) سورة الشورى: الآية رقم ٥٢ .

(٤) سورة العكبوت: الآية رقم ٤٨ .

(٥) سورة الأعراف: الآية رقم ١٥٧ .

(٦) سورة النساء: الآية رقم ١١٣ .

(٧) سورة طه: الآية رقم ١١٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

□ وذكر بعض المفسرين أنه ﷺ ما أمر بطلب الزيادة من شئ سوى العلم، وكان يقول: «اللهم انفعنى بما علمتنى، وعلمنى ماينفعنى، وزدنى علماً». وكان يستعيذ من العلم الذى لاينفع، وقد تضمن هذا المنهج أصول التعليم: التلاوة، وتعليم الكتاب، وتعليم الحكمة، ثم التزكية، فهو منهج متكامل لكل مايصلح الفرد والمجتمع من جميع الجوانب، ولايحتاج إلى مايكمله، وقد جاء ترتيبه في أسمى درجات البلاغة والحكمة، لأن أول تبليغه يكون بتلاوة القرآن، ثم بيان معانيه ثم تعليم الحكمة وبها تحصل التزكية .

□ ونلاحظ أن جميع الآيات بدأت بذكر الأصل الأول وهو التلاوة، لأنها هى مفتاح كنوز القرآن، ولاعجب فى ذلك، إذ كانت أول آية نزلت تأمره ﷺ بالقراءة. قال سبحانه وتعالى: **﴿إقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم﴾**(١).

أولاً: نبدأ بالمعلم الأول بما بدأ الله به فى جميع الآيات التى تقدمت، وهى تلاوة القرآن، ومعناها القراءة المتتابعة المرتلة التى يكون بعضها تلو بعض، وأول صفات هذا المعلم: يتلو عليهم آياتك، أى يقرأ عليهم القرآن، وأصلها من الاتباع، ومنه قولهم: تلاه إذا تبعه، وهى ذكر الكلمة بعد الكلمة على نظام تأليف القرآن وترتيبه. ومنه قوله تعالى: **﴿والقمر إذا تلاها﴾**(٢).

□ وقد أمر هذا المعلم ﷺ أن يتلو القرآن علي أصحابه كما قال تعالي: **﴿وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن﴾**(٣).

---

(١) سورة العلق: الآية رقم ١-٥ .

(٢) سورة الشمس: الآية رقم ٢ .

(٣) سورة النمل: الآية رقم ٩١، ٩٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

□ وقال: ﴿**قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ولاأدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله**﴾(١).

□ فكان ﷺ يعلم الصحابة القرآن كما جاء ذلك فى قولهم: «كان يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرءان»(٢).

□ وجئ بالمضارع فى قوله: ﴿**يتلوا**﴾ للإشارة إلى أن هذا الكتاب تتكرر تلاوته، ولهذا جاء فى وصف القرآن: ﴿**الله نزل أحسن احديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم**﴾(٣).

□ **من صفات هذا الكتاب** أنه يثنى ويكرر. فقوله ﴿**مثانى**﴾ بمعنى التكرار والإعادة، وقد كرر الله الأمر بالقراءة في سورة العلق، فتثنى وتكرر قراءته وأحكامه وحكمه وأخباره ...

□ **والمراد بالآيات** - جمع آية - وهى في اللغة العلامة - آيات القرآن الكريم، فكان ﷺ يتلوها ليحفظوا ألفاظها كما نزلت، ويتعبدوا الله بتلاوتها .

□ وبعد أن أمره الله بالقراءة والتلاو بين له صفة التلاوة، فعناية الله لنبيه ﷺ لم تنقطع، بل قد رسم القرآن لنبيه كيفية القراءة، فقال ﴿**فتعالي الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدنى علماً**﴾(٤).

□ وقال فى بيان كيفية التلاوة: ﴿**لاتحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه**﴾(٥).

---

(١) سورة يونس: الآية رقم ١٦ .

(٢) صحيح البخارى: ١٦٢/٧ .

(٣) سورة الزمر: الآية رقم ٢٣.

(٤) سورة طه: الآية رقم ١١٤ .

(٥) سورة القيامة: الآية رقم ١٦-١٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقال: ﴿سنقرئك فلا تنسى إلا ماشاء الله﴾(١).

المعلم الأول للنبى ﷺ هو جبريل، كما بينه القرآن، فقال: ﴿إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى﴾(٢).

❐ فقد كان ﷺ يبادر إلى أخذ الوحى، ويسابق الملك في قراءته قبل ن ينتهى جبريل المعلم، فأمره الله -عزوجل - إذا جاء الملك بالوحى أن يستمع وينصت حتى ينتهى جبريل من القراءة، فإذا انتهى أمره أن يتابع القراءة بالكيفية التى قرأ بها جبريل المعلم، ولذلك أقرأ أصحابه ﷺ بهذه الكيفية وأمرهم أن يقرأوا بها فقال: «إقرءوا كما علمتهم»(٣). قال الحافظ ابن كثير: «كان إذا جاء جبريل بالوحى كلما قال جبريل بالوحى كلما قال جبريل آية قالها معه من شدة حرصه على حفظ القرآن فارشده الله - تعالى - إلا ماهو الأسهل والأخف فى حقه لئلا يشق عليه»(٤).

❐ فبين القرآن له كيفية التلقى فقال: ﴿لاتحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه﴾(٥). أى فإذا قرأه جبريل عليك وانتهى فاتبع قراءته، فالقرآن هنا مصدر بمعنى القراءة، ثم نهاه عن السرعة والعجلة في التلاوة، فقال: ﴿فتعالى الله الملك الحق ولاتعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدنى علماً﴾(٦). بل أنصت واستمع، فإذا فرغ جبريل المعلم من قراءته عليك، فاقرأ بعده .

---

(١) سورة الأعلى رقم ٦، ٧ .

(٢) سورة النجم: الآية رقم ٤، ٥ .

(٣) فتح البارى: ٢٣/٩، المختصر: ١٨٣/١ .

(٤) تفسير ابن كثير: ١٨٥/٢ .

(٥) سورة القيامة: الآية رقم ١٦-١٩ .

(٦) سورة طه: الآية رقم ١١٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

□ روى أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: «كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يلقى منه شدة، وكان إذا نزل عليه عرف فى تحريكه شفتيه يتلقى أوله، ويحرك به شفتيه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره، فأنزل الله هذه الآية: ﴿لاتحرك به لسانك لتعجل به﴾ مخافة أن ينساه.

□ فيجب فى طلب العلم التأنى والتثبت فى تلقى العلم، وألا يحمله الحرص على مبادرة المعلم بالأخذ قبل فراغه من كلامه، فأمره الله بترك الاستعجال فى تلاوة القرآن حتى ينتهى جبريل، ثم يقرأه بعد فراغه عليه.(١)

□ وقد وعد الله وطمأنه وأخبره بأنه سيقرئه قراءة لاينساها فقال: ﴿سنقرئك فلا تنسى إلا ماشاء الله إنه يعلم الجهر ومايخفى﴾(٢).

ثم بين له القرآن أدب التلقى فقال: ﴿وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾(٣).

□ ومادة (تلقى) من اللقيا، فيها لقاء بين اثنين هما المتلقى بكسر القاف، والمتلقي منه بفتح القاف، والمتلقى هنا هو الرسول ﷺ، والمتلقى منه هو الله - تعالى-(٤). ولكن الواسطة جبريل المعلم، لأن الله قال: ﴿وماكان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه مايشاء﴾(٥).

---

(١) انظر: بدائع الصنائع: ٨٢/٥ .

(٢) سورة الأعلى: الآية رقم ٦، ٧ .

(٣) سورة النمل: الآية رقم ٦ .

(٤) سنن القراءة: ص٤٥ .

(٥) سورة الشورى: الآية رقم ٥١ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

□ وقال تعالى فى بيان هذا المعلم: ﴿إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى﴾(١).

□ هكذا علمه الله كيف يتلقى الوحى: ﴿وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً﴾(٢).

□ ثم بعد ذلك لم يكله إلى نفسه وحفظه، بل أرسل إليه المعلم جبريل يعارضه القرآن ويدارسه فى كل ليلة من رمضان، وليس معنى ذلك أيضاً أن يتخلى عنه طيلة أشهر السنة إلا فى رمضان، بل كان ينزل عليه فى كل الأحوال كما قال - تعالى: ﴿ولايأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا﴾(٣).

□ ولذلك نزل عليه القرآن فى الحضر والسفر والليل والنهار... إلخ .

وإنما المدارسة والعرض والسماع كان فى رمضان من كل عام، وفي العام الذى قبض فيه عارضه بالقرآن مرتين .

□ أخرج البخارى ومسلم عن ابن عباس: قال: «كان رسول الله ﷺ أجود مايكون في رمضان حين يلقاه جبريل في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة»(٤).

□ وفى حديث فاطمة عند البخارى فى فضائل القرآن. قال رسول الله ﷺ: «إن جبريل يعارضنى بالقرآن فى كل سنة، وإنه عارضنى العام مرتين». ومعنى هذا أن جبريل يعرض القرآن، والنبى ﷺ يسمع ومن ثم أمر بالإنصات والإستماع كما تقدم، ثم إن النبى ﷺ يعرض القرآن وجبريل يسمع، يدل على هذا رواية عن ابن عباس: «كان النبى ﷺ أجود بالخير، وأجود مايكون فى

---

(١) سورة النجم: الآية رقم ٤ - ٦ .

(٢) سورة النساء: الآية رقم ١١٣ .

(٣) سورة الفرقان: الاية رقم ٣٣ .

(٤) فتح البارى: ١/ ٣٠ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رمضان، لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن» .

❐ هذه هي طريقة النبي ﷺ في تلقي القرآن، وتسمى: (العرض والسماع) .

❐ فعلينا أن نقتدي به ونفعله في قراءة القرآن، وقد وجه الله عباده إلى هذا الأدب بالاستماع والإنصات فقال: ﴿**وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون**﴾(١).

وبين لهم شروط الانتفاع بالقرآن فقال: ﴿**إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**﴾(٢).

فيحصل الانتفاع بالقرآن لمن كان له قلب حي يعقل الكلام ويتدبره، ولمن وجه سمعه، وأصغى إلى مايقال له، وهو حاضر القلب غير غائب، قال ابن قتيبة: «استمع كتاب الله، وهو شاهد القلب والفهم ليس فغافل ولا ساه»(٣). قال الراغب: «وكل موضع أثبت فيه الله السمع للمؤمنين أو نفاه عن الكافرين أو حث على تحريه، فالقصد به إلي تصور المعنى والتفكر فيه»(٤).

قال سفيان بن عيينة: «أول العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر»(٥)

❐ ومن منهج النبي ﷺ وطريقته في التلاوة أنه كان يرتل القرءان ترتيلاً إمتثالاً لأمر الله: ﴿**ورتل القرآن ترتيلاً**﴾(٦). بعد أن نهاه عن

---

(١) سورة الأعراف: الآية رقم ٢٠٤.

(٢) سورة ق: الآية رقم ٣٧ .

(٣) غريب القرآن: ص٤١٩، بدائع التفسير: ٤/١٩١ .

(٤) المفردات: ص٢٧١ .

(٥) الجامع للقرطبي: ٦/٩٦ .

(٦) سورة المزمل: الآية رقم ٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العجلة أمره بترتيل القرآن كما أنزله الله مرتلاً، وأمره أن يقرأه على الناس مرتلاً، فالترتيب أمر ملحوظ فى النزول كالقراءة نفسها، وقد بين ذلك القرآن نفسه فقال: ﴿وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً﴾(١). أى ترسل فى تلاوته، وأحسن تأليف حروفه بالتأنى في قراءته وتبين حروفه وحركاته ليكون ذلك عوناً على فهم القرآن وتدبره، كما سيأتى، وأثر عن على رضى الله عنه أنه قال: «الترتيل هو تجويد الحروف ومعرفة الوقوف»(٢).

☐ وقد امتثل النبى ﷺ لهذا الأمر، وقد كانت قراءته ﷺ ترتيلاً، فعن أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - قالت: «كان ﷺ يقرأ بالسورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها»(٣).

☐ وعن أم سلمة - رضى الله عنها - أنها سئلت عن قراءة النبى ﷺ: «فإذا هى تنعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً»(٤).

☐ ومنها مارواه البخارى في صحيحه، باب مد القراءة يصف فيها قراءة النبى ﷺ.

فعن قتادة قال: سألت أنس بن مالك رضى الله عنه عن قراءة النبى ﷺ فقال: كان يمد صوته مداً» .

☐ ومن ذلك مارواه البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه سئل: كيف كانت عن قراءة النبى ﷺ فقال: «كانت مداً» . ثم قرأ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ يمد ﴿بسم الله﴾ ويمد بـ﴿ الرحمن﴾ ويمد بـ﴿ الرحيم﴾.

---

(١) سورة الإسراء: الآية رقم ١٠٦ .

(٢) تفسير ابن كثير: ٤/٤٥٩، الجامع للقرطبى: ٦/٩٦ .

(٣) تفسير ابن كثير: ١/٤٥١ .

(٤) رواه الترمذى فى أبواب التفسير .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

❐ وقد أخذ عنه صفة التلاوة وكيفيتها أصحابه، فهذا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقرئ رجلاً، فقرأ الرجل: ﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين**﴾[١]. مرسلة، فقال ابن مسعود: «ماهكذا أقرأنيها النبى ﷺ فقال الرجل: «وكيف أقرأكها ياأبا عبد الرحمن؟ قال: أقرأنيها: ﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين**﴾ فمدها»[٢].

❐ فهذا عبد الله بن مسعود الذى هو أشبه الناس سمتا برسول الله ﷺ أنكر على الرجل أن يقرأ كلمة «الفقراء» من غير مع، وبين للرجل أن النبى ﷺ ماقرأ بهذه الصفة التى قرأ بها الرجل، وبين عبد الله بن مسعود للرجل صفة قراءة النبى ﷺ للكلمة ومدها، ولم يقره على ترك المد من أن فعله وتركه سواء فى عدم التأثير على دلالة الكلمة ومعناها، فدل على أن القراءة سنة متبعة يأخذها الآخر عن الأول كما قال زيد بن ثابت .

❐ وقد أمر النبى ﷺ أصحابه أن يقرأوا القرآن كما علمهم. أخرج ابن جرير الطبرى عن عبد الله بن مسعود. قال: قال علي رضى الله عنه: «إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تقرأوا كما علمتم»[٣].

❐ فهذه النصوص المتوافرة فى صفة قراءة النبى ﷺ دلت علي أن قراءة القرآن بالكيفية التى قرأ بها النبى ﷺ توقيفية، فلا يجوز العدول عنها ولاالإخلال بها .

❐ وإذا انتقلنا إلى باب الوقف والإبتداء فى قراءة النبى ﷺ نجد نصوصاً صريحة تبين عناية النبى ﷺ بالوقف واختياره لمواضع يحسن الوقف عليها والإبتداء بما بعدها، وقد تعلم ذلك من جبريل المعلم .

---

(١) سورة التوبة: الآية رقم ٦٠ .

(٢) الإتقان: ٩/١ .

(٣) فتح البارى: ٢٣/٩ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

□ وقد وصفت أم سلمة - رضى الله عنها - عناية النبى ﷺ بالوصل والوقف علمياً وعملياً .

□ روى عنها أنها سئلت عن قراءة النبي ﷺ، فإذا هى تنعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً، وقالت: كان يقطع قراءته يقول: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾، ثم يقف ﴿الرحمن الرحيم﴾ ثم يقف: وكان يقرأ: ﴿مالك يوم الدين﴾.

وفى لفظ لأبى داود: «كان يقطع قراءته آية آية»(١).

□ وفى لفظ هذه الصفة وهذه الكيفية فى تلاوة القرآن الصحابة - رضى الله عنهم - يذكر ميمون بن مهران عن الصحابة أنهم كانوا يراعون في الوصل والوقف تمام المعنى فقال: «إنى لأقشعر من قراءة أقوام يرى أحدهم حتماً عليه ألا يقصر عن العشر إنما كانت القراءة تقرأ القصص إن طالت أو قصرت». وقال عبد الله بن أبى الهذيل: «إذا قرأ أحدهم الآية فلا يقطعها حتى يتمها»(٢).

□ هذا هو معنى المقرر الأول في أصول التربية والتعليم كما رسمه القرآن فى قوله: ﴿يتلوا عليهم آياته﴾(٣). وهذا هو منهج النبى ﷺ في صفة التلاوة وكيفيتها، فعلينا أن نقتدى به وبفعله ﷺ .

الأصل الثانى: من أصول التربية والتعليم الذى تضمنه هذا المنهج:

تعليم الكتاب، وهو المنصوص عليه فى قوله تعالى: ﴿ ويعلمهم الكتاب﴾. (٤)

---

(١) غاية المريد: ص١١٢، ابن كثير: ٤/٤٥٩.

(٢) النشر: ١/ ٢٤٠، المكتفي: ص١٣٥.

(٣) سورة الجمعة: الآية رقم ٢ .

(٤) سورة الجمعة: الآية رقم ٢ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عطفاً على قوله: ﴿يتلوا عليهم آياته﴾[١]، عطف جملة على جملة.

❐ ومما لاشك فيه ولاخلاف عند المسلمين أن القرآن الكريم تضمن علوماً ومعارف يعجز البشر عن الإتيان بها، وتضمن حكماً وأحكاماً وأسراراً بها يحقق الإنسان سعادته في الدنيا والآخرة، ولاسبيل إلى معرفة هذه العلوم وهذا التشريع، وهذه الهدايات والوقوف عليها والعمل بها إلا بفهم القرآن وتفسيره وتدبره، لأن ملكة الفهم دخلها الفساد، فصار الناس لايفهمون القرآن ولايفقهون مافيه، وبدون فهم القرآن وتفسيره لايمكن الوصول إلى كنوزه مهما رددنا تلاوته وأقمنا حروفه.

❐ قال الحافظ السيوطى: «ونحن محتاجون إليه وزيادة علي ذلك مما لم يحتاجوا إليه من أحكام الظواهر، لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة بغير تعلم، فنحن أشد الناس احتياجاً إلى التفسير»[٢].

❐ فقد كان الصحابة - رضى الله عنهم - يحتاجون إلى تفسير النبى ﷺ كما أثر عنه أنه فسر لهم قوله - عز وجل-: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾[٣].

❐ روى البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «لما نزلت هذه الآية قال الصحابة: «وأينا لم يظلم نفسه؟ وشق ذلك عليهم فقال ﷺ: «إنه ليس الذى تعنون، ألم تسمعوا ماقال العبد الصالح: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾، «إنما هو الشرك»[٤].

---

(١) سورة الجمعة: الآية رقم ٢.

(٢) الإتقان: ٢/ ٣٨٥.

(٣) سورة الأنعام: الآية رقم ٨٢.

(٤) تفسير ابن كثير: ٢/ ١٧٠، التفسير والمفسرون: ١/ ٥٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

❐ من صفات هذا المعلم، أنه يتلوا عليهم القرآن، ويعلمهم معانى الكتاب وماخفي وأشكل عليهم، فكان الصحابة - رضى الله عنهم - يرجعون إليه عند الحاجة .

❐ وتعليم الكتاب يكون ببيان ماخفي من معانيه وحقائقه، وماشتمل عليه من أحكام وحكم ومواعظ وآداب وأخلاق. وبالجملة: هو بيان المقاصد التى من أجلها نزل القرآن. وتعليم الكتاب غير تلاوته، لأن تلاوته تكون بقصد حفظ الألفاظ، وتعليم الكتاب يكون بقصد حفظ المعانى والأحكام والحكم التى اشتمل عليها وفهمها. وهو تفسير القرآن، ومن مهمة الرسول ﷺ ووظيفته البلاغ والبيان، وكل منهما يتضمن الآخر، قال تعالى ﴿**بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الكتاب لتبين للناس مانزل إليهم**﴾(١).

❐ وقال: ﴿**وماعلي الرسول إلا البلاغ المبين**﴾(٢). وهذا يتضمن بلاغ المعنى، وأنه فى أعلى درجات البيان .

❐ قال ابن تيمية: «إن الصحابة - رضى الله عنهم - نقلوا عن النبى ﷺ أنهم كانوا يتعلمون منه التفسير مع التلاوة»، وقال: «وأخذوا عن الرسول لفظ القرآن ومعناه»(٣).

❐ فالرسول المعلم ﷺ بين لأصحابه القرآن لفظه ومعناه، فبلغهم معانيه كما بلغهم ألفاظه، ولايحصل البيان والبلاغ المقصود إلا ببيان لفظه ومعناه، فنقل معانى القرآن عنه ﷺ كنقل ألفاظه سواء .

❐ وعلى هذه الطريقة سار الصحابة -رضى الله عنهم - قال ابن القيم «ولم يكن للصحابة كتاب يدرسونه وكلام محفوظ يتفقهون فيه إلي القرآن، وماسمعوه من نبيهم، ولم يكونوا إذا جلسوا يتذاكرون إلا فى ذلك»(٤).

---

(١) سورة النحل: الآية رقم ٤٤ .

(٢) سورة النور: الآية رقم ٥٤ .

(٣) التفسير الكبير: ٢/١٠٤، ٢٥٣ .

(٤) الصواعق المرسلة: ص٤٤١ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

❐ وهكذا تلقي السلف الصالح هذا القرآن لفظاً ومعنى، إحكاماً للفظ وإتقاناً للمعنى، وكانوا ينكرون على من انصرف عن فهم القرآن. روى ابن جرير الطبرى عن سعيد بن جبير قال: «من قرأ القرآن ثم لم يفسره كان كالأعمى». وفى بعض الروايات: «كالأعرابى بهز الشعر هذا»[١].

❐ وذكر الحافظ ابن كثير وابن القيم: أن عدم فهم القرآن والتفقه فيه وتدبره نوع من أنواع هجر القرآن[٢]، فالقرآن الكريم لم ينزل لمجرد التلاوة اللفظية، بل نزل من أجل هذا، ومن أجل ماهو أعم وأكمل، وهو فهم معانيه والتذكر بما فيه، والعمل به.

❐ إن تلاوة القرآن تعنى شيئاً آخر غير المرور بكلمات بصوت أو بغير صوت، إنها تعنى تلاوته بفهم وتدبر ينتهى إلى إدراك وتأثر، وإلى عمل بعد ذلك وسلوك .

❐ وأقول: إن إنفصال المواد الدراسية علي إطلاقه ليس من طبيعة هذا الدين، لامن شأن عمل السلف الصالح، فإنهم كانوا يأخذون بالقرآن كلاً لايتجزأ، ولابد من ربط كل هذه العلوم، وهذه المواد الدراسية بالقرآن الكريم. والذى يحقق هذه الغاية هو تفسير القرآن والتفقه فيه دون سواه، فهو وحده الكفيل بتحقيق شمولية التربية والتعليم من جميع النواحى، فيجب علينا أن نستغنى بمعانى القرآن وأحكامه وحكمه عن غيره من كلام الناس .

❐ وهذا الفضيل بن عياض يصحح للطلاب توجههم فى طلب العلم، فقد ذكر الإمام القرطبى أن الفضيل بن عياض قال لقوم قصدوه ليأخذوا عنه العلم: «لو طلبتم كتاب الله لوجدتم فيه شفاء لما تريدون». فقالوا: فقد تعلمنا القرآن، فقال: «إن في تعلمكم القرآن شغلاً لأعماركم وأعمار أولادكم».

---

(١) تفسير الطبرى: ١/ ٣٥، الإتقان ٢ / .

(٢) تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٩٤، بدائع التفسير: ٣/ ٢٩٢ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

❐ فقالوا: كيف ياأبا علي؟ قال: «لن تعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه، ومحكمه، ومحكمه، ومتشابهه، وناسخه من منسوخه، فإذا عرفتم ذلك استغنيتم عن كلام فضيل وابن عيينة». (١)

والمراد بالإعراب في كلام الفضيل البيان والتفسير.

❐ **إذن:** كيف نستغني عن كتب الناس وعن مادة الفقه والحديث والعقيدة، كما نص غير واحد من العلماء؟. الأمر في غاية السهولة .

❐ **أقول:** لانستغني عن ذلك لأن جميع علوم الشرع قد استقل ببيانها القرآن، وقد أدرك هذا المعنى الإمام القرطبي - رحمه الله - فقال في مقدمته: «فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع... رأيت أن أشتغل به مدى عمري، وأستفرغ فيه قوتي» (٢).

❐ ومن أهم العلوم التي يتعلمها الطالب في تفسير القرآن هو علم التوحيد، وقد أخذ حيزاً كبيراً من كتاب الله - تعالي - قال ابن القيم: «وغالب سور القرآن متضمنة لأنواع التوحيد، بل كل سورة في القرآن، فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادة الله وحده، فهو التوحيد، الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته، فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته» .

❐ وقال حافظ الحكمي: «والقرآن كله من أوله إلي آخره في تقرير هذين التوحيدين» (٣).

وقال ابن أبي العز شارح متن الطحاوي: «فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم» (٤).

---

(١) الجامع القرطبي: ١/ ٣٠، فتح القدير: ١/ ١٤ .

(٢) الجامع القرطبي: ١/ ١٤ .

(٣) معارج القبول: ١/ ٥٧ .

(٤) شرح الطحاوية: ٤١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

❐ وإذا كان القرآن كله فى تقرير التوحيد بأصنافه، وأنواعه، وإكرام الله لأهله. وبيان خطر الشرك وذم أهله، فإن تفسير القرآن والتفقه فيه هو الذى يغطى هذا المجال الواسع، وبغير التفسير يبقي المجال ناقصاً، فالذى يأخذ أحكام العقيدة من القرآن بانتقاء وفصل كل مايتعلق بالتوحيد لايستطيع ذلك، وإذا اقتصر علي بعض منها، فهذا فيه قصور ونقص، لأنه لم يستوعب كل الآيات، بل إن هناك بعض الآيات متعلقة ببعض الأحكام وفى ضمنها مايتعلق بالعقيدة، فثبت أن فهم القرآن والتفقه فيه أكمل وأجمع لجميع العلوم.

❐ ومن العلوم التى يتعلمها الطالب فى تفسير القرآن الحديث النبوى الشريف، فإنه المبين لمراد الله من الآية، ويشهد بما شهد به القرآن. قال الواحدى: «لايمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها».

❐ وقال ابن دقيق العيد: «بيان سبب النزول طريق قوى فى فهم معانى القرآن»(١).

❐ قال ابن حزم فى كتاب الأحكام وهو يتحدث عن السلف الصالح كيف كانوا يتعلمون الدين: «كان أهل هذه القرون الفاضلة المحمودة يطلبون حديث النبى ﷺ والفقه فى القرآن الكريم».(٢)

❐ ومن ثم كانت الحاجة ماسة إلى الأحاديث النبوية التى تبين معنى الآية، فالأحاديث الصحيحة المروية فى أسباب نزول القرآن وبيان المراد منه، تشهد باتفاق القرآن والحديث، فهذه الأحاديث تقرر نصوص القرآن وتكشف معانيها كشفاً مفصلاً، وتقرب المراد وتدفع عن الآيات الاحتمالات، وتفسر المجمل منه وتبينه وتوضحه، وخير من يمثل هذا الاتجاه فى ذكر الأحاديث بعد

---

(١) الإتقان: ٦٢/١، مناهل العرفان: ١١٠/١.

(٢) آثار عبد الحميد: ٧٥/٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الآيات من المفسرين الحافظ ابن كثير فى تفسيره، بل التفسير الصحيح المقدم علي غيره هو ماصح عن النبى ﷺ وحينئذ فإن الحديث يندرج في علم التفسير لحاجته إلى البيان .

❐ ومما يتعلمه الطالب فى علم التفسير علم الفقه، وإنى أرى أن عرض مادة الفقه بالطريقة المستقلة عن القرآن، لاتؤدى الغرض المطلوب، حيث يؤدى أستاذ المادة عرضه بذكر المسألة والتعريف بها، ثم بأقوال العلماء فيها، ثم بإيراد الدليل من القرآن أو السنة أو هما معاً، فيقول: دليل هذه المسألة كذا، ودليل هذا القول كذا، ودليل تلك كذا، ويسرد الدليل، هذا إذا كان يذكر الدليل وهو أحسن أحواله .

❐ والطالب هنا لايعرف القرآن إلا دليلاً، ولايفهم معنى هذا الدليل، وقد كنا نعانى الشئ الكثير من ذلك عندما كنا طلاباً حتى إننا لم نستطع إيجاد علاقة بين الدليل والمدلول عليه لجهلنا بمعنى الدليل وهو الآية القرآنية.

❐ فالطالب يحتاج إلى استخراج هذه العقيدة وهذا الفقه من هذه الآية، وهذا الدليل ببيانها وشرحها، وأسباب نزولها، وأفهام العلماء فيها واستنباط الفقه منها، وحينئذ يؤول الفقه والعقيدة بهذه الطريقة إلى تفسير وفهم للقرءان وربط الطالب به. هذه هى الطريقة المثلى التى أراها تحقق الغاية المرجوة - إن شاء الله - .

❐ وقد أثر عن بعض المفسرين القول بأن قوله - تعالى-: ﴿ **ويعلمهم الكتاب**﴾، يعنى الكتابة، مصدر كتب كتاباً وكتابة، فذكر القرطبى عن ابن عباس: ﴿ **الكتاب**﴾ الخط بالقلم، لأن الخط فشا فى العرب بالشرع لما أمروا بتقييده بالخط[1].

---

(١) الجامع: ٨٣/٩ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والتفسير الأول - أعنى يعلمهم معانى القرآن - هو المشهور في تفسير هذه الآية وعليه الجمهور، بل إن جل المفسرين لم يذكروا إلا القول الأول، ولايعنى ذلك التهوين من شأن الكتابة والخط، فلقد نوه الله بشأن الخط والكتابة فقال: **﴿اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم﴾**(١).

- التعليم بالقلم كالتعليم الذهنى، نعمة عظيمة علي عباده، إذ به تخلد العلوم، ويصل الخلف بالسلف، وتضبط الأحكام والعلوم والمعارف.(٢)
- وكان له ﷺ كتاب يكتبون بين يديه الوحى، وقد أخبر - تعالى - عن فضله ورحمته أن علم الإنسان البيانين: البيان النطقى، والبيان الخطى.
- قال القرطبى: «القلم نعمة من الله، عظيمة، لولا ذلك لم يقم دين ولم يصلح عيش، فدل على كمال كرمه - سبحانه وتعالى - بأن علم عباده مالم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، نبه على فضائل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التى لايحيط بها إلا هو .
- ومادونت العلوم، ولاقيدت الحكم، ولاضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ولاكتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هى مااستقلت أمور الدين والدنيا »(٣).

الأصل الثالث من هذا المنهج: تعليم الحكمة:

أى أن من صفات هذا المعلم أنه يعلمهم الكتاب، ويعلمهم الحكمة، وقد بين القرآن أن الله أنزلها وأنها تتلى. فقال: **﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم﴾**(٤). وقال: **﴿واذكروا نعمت الله**

---

(١) سورة العلق: الآية رقم ١ - ٥ .

(٢) بدائع الصنائع: ٥/٢٨٣ .

(٣) الجامع للقرطبى: ١٠/١٠٧ .

(٤) سورة النساء: الآية رقم ١١٣ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عليكم ومأأنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به﴾(١). وقال: ﴿واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾(٢).

□ ففى هذه الآيات بيان لهذا المعلم، وأنه يعلمهم الكتاب ويعلمهم الحكمة، وأن الله أنزل عليه الحكمة كما أنزل عليه القرآن وهى السنة كما قال غير واحد من السلف، فنوع المتلو إلى نوعين: آيات وهى القرآن، وحكمة وهى السنة، وبها تتبين مقاصد الكتاب وأسراره وحكمه وأحكامه .

وقد تطلب الحكمة علي امتثال الأوامر واجتناب النواهى، وهى العمل بما جاء في القرآن أمراً ونهياً كما جاء فى القرآن أمراً ونهياً كما جاء ذلك فى قوله - تعالي -: ﴿ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾(٣). واسم الإشارة يعود إلى ماتقدم ذكره من التكاليف الشرعية التى لايتطرق إليها النسخ، والتى تبلغ خمسة وعشرين تكليفاً بدءاً من قوله - تعالى -: ﴿لاتجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً﴾(٤). وختمها بقوله: ﴿ولاتجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى فى جهنم ملوماً مدحوراً﴾(٥).

□ وفسرها الحافظ ابن كثير بالسنة وعزا ذلك إلى غير واحد من السلف، وهو مأأخذ عن الرسول ﷺ سوى القرآن: «إنى أوتيت القرآن ومثله معه»، ومصداق ذلك فى كتابه الكريم: ﴿ومايَنطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى﴾(٦).

---

(١) سورة البقرة: الآية رقم ٢٣١ .

(٢) سورة الأحزاب: الآية رقم ٣٤.

(٣) سورة الإسراء: الآية رقم ٣٩ .

(٤) سورة الإسراء: الآية رقم ٢٢ .

(٥) سورة الإسراء: الآية رقم ٣٩ .

(٦) سورة النجم: الآية رقم ٣ - ٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

❐ ونزع ابن عباس فى تفسيره للحكمة إلى المعرفة بالقرآن وفقه مافيه من العلوم، وهو من أوسع التفسيرات فيما أعلم .

❐ أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً**﴾(١). قال: «المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله». وفى رواية عنه: «التفسير والتفقه فى القرآن»(٢).

❐ وتعنى من بين ماتعنيه الفقه والفهم في القرآن، ويدل له قوله: ﴿**ولقد ءاتينا لقمان الحكمة**﴾(٣). وقوله: ﴿**وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب**﴾(٤).

❐ قال مجاهد في هذه الآية: «يعنى الفهم والعقل والفطنة»(٥).

❐ وقد خص الله سليمان بالفهم فقال: ﴿**ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً**﴾(٦).

❐ وكل ذلك لاينافى من فسر الحكمة بالسنة، لأن بها يحصل العلم، فهى المفسرة والمبينة للقرآن الكريم، فالأحاديث الصحيحة تقرر نصوص القرآن، وتكشف معانيها كشفاً مفصلاً، وتقرب المراد، وتدفع عن الآيات الاحتمالات، وتفسر المجمل منه وتبينه وتوضحه، وبكل هذا يحصل الفهم والفقه .

---

(١) سورة البقرة: الآية رقم ٢٦٩ .

(٢) الإتقان: ٢/ ٣٨٥، فتح القدير: ١/ ٢٩١ .

(٣) سورة لقمان: الآيج رقم ١٢ .

(٤) سور ص : الآية رقم ٢٠ .

(٥) تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٣ .

(٦) سورة الأنبياء: الآية رقم ٧٩ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

❐ قال القرطبى: فكتاب الله حكمة، وسنة نبيه حكمة، وأصل الحكمة مايمتنع به من السفه»(١).

❐ ومن ثم اشتركت الحكمة فى نسق تعليم الكتاب: ﴿ **ويعلمهم الكتاب والحكمة**﴾(٢).

فتلاوة للآيات، وتعليم للكتاب، وتعليم للسنة.

الأصل الرابع: مما تضمنه هذا المنهج: التزكية :

ومن صفات هذا المعلم ﷺ أنه: ﴿**يتلوا عليهم آياته ويزكيهم**﴾(٣). تلاوة للآيات وتعليم للكتاب والحكمة، وتزكية بمعنى التطهير والتنقية من السوء والقبائح والمنكرات، وهى ثمرة لتطبيق المنهج السابق، وهى ثمرة لتلاوة القرآن، وثمرة لفقه القرآن والتفقه فيه، وثمرة لفهم السنة، وهى العمل بما علم من التلاوة والكتاب والسنة .

التزكية: تطهير الإنسان ظاهراً وباطناً من دنس الذنوب والمعاصى والآثام، ومن أعظمها التطهير من أرجاس الشرك، وهى العمل بالعلم، وامتثال الأوامر واجتناب النواهى .

❐ قال تعالي: ﴿**قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى**﴾(٤).

وقال - جل وعلا- : ﴿**قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها**﴾(٥).

---

(١) الجامع للقرطبى: ١/١٢٤ .

(٢) سورة الجمعة: الآية رقم ٢ .

(٣) سورة الجمعة: الآية رقم ٢ .

(٤) سورة الأعلى: الآية رقم ١٤، ١٥.

(٥) سورة الشمس: الآية رقم ٩، ١٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

❐ فقد فاز بكل مرغوب وظفر بكل محبوب من زكى نفسه وهذبها ونماها بالعلم، وزكاها بالتلاوة وفقه القرآن والسنة والعمل بذلك. ومادة التفعل للتكلف وبذل الجهد، أى بذل جهده في تطهير نفسه بالأعمال الصالحة.(١)

❐ وهكذا كان ﷺ يزكى أصحابه، فيتلقون منه خمس آيات أو عشر آيات ويتعلمون منه صفة أدائها وقراءتها، ويتعلمون مافيها من العلم والعمل به.

❐ قال أبو عبد الرحمن السلمى - أحد أكابر التابعين الذين أخذوا القرآن ومعانيه عن مثل عبد الله بن مسعود وعثمان بن عفان وتلك الطبقة: «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن من أصحاب النبى ﷺ عشر آيات لم يجاوزها حتى يتعلموا مافيها من العلم والعمل، فتعلمنا القرآن والعمل»(٢).

❐ فكانوا لايجاوزوهن حتى يعلموا مافيها من العلم والعمل، فقد روى الطبرى عن عبد الله بن مسعود قال: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن»(٣).

فالعمل بالقرآن هو الذى يحقق التزكية. قال تعالى: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه﴾(٤).

❐ روى ابن أبى حاتم عن الحسن البصرى قال: «والله ماتدبره من حفظ حروفه وأضاع حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ولايرى للقرآن عليه في خلق ولاعمل»(٥).

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٨٨/٣٠.

(٢) المصنف: ٤١٦/١٠، الصواعق: ٤٤٣.

(٣) جامع البيان: ٣٥/١.

(٤) سورة الأنعام: الآية رقم ١٥٥.

(٥) تفسير ابن كثير: ٣٦/٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

□ وقد أثر عن بعض السلف فى معنى: ﴿يتلونه حق تلاوته﴾[١].. يتبعون القرآن ويعملون به. قال عبد الله بن مسعود: «والذى نفسى بيده إن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله، ولايحرف الكلم عن مواضعه، ولايتأول منه شيئاً على غير تأويله»[٢].

□ ولذلك لما سئلت عائشة - رضى الله عنها - عن خلق رسول الله ﷺ قالت: كان خلقه القرآن .

قال الحافظ بن كثير مبيناً هذا الخلق: «ومعنى هذا أنه عليه السلام صار امتثال القرآن أمراً وتهيا سجية له وخلقاً تطبعه وترك طبعه الجبلى فمهما أمره القرآن فعله ومهما نهاه عنه تركه»[٣].

□ ولما بين الله هذا المنهج ورسمه في كتابه، وبين أن من صفات هذا المعلم الذى بعث فى الأميين أنه يزكيهم ويطهرهم من أدران الشرك والذنوب والأثام عقب علي ذلك بمثال من يحفظ هذا المنهج ولايعمل به لايحصل له التطهير والتزكية فقال: ﴿**مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لايهدى القوم الظالمين**﴾[٤].

□ وكل من علم ولم يعمل بعلمه، فهذا مثله، وهذه صفته، وهذه حاله، وبئس المثل .

وكل من رغب عن هذا المنهج بطريقته التى بيناها يعد سفيهاً، ولذلك عقب على ذكره بقوله: ﴿**ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه**﴾[٥].

---

(١) سورة البقرة: الاية رقم ١٢١ .
(٢) تفسير ابن كثير: ١/ ١٧٥، الطبرى: ١/ ٥٦٧.
(٣) تفسير ابن كثير: ٤/ ٤٢٥، القرطبى: ٩/ ٢١٠.
(٤) سورة الجمعة: الآية رقم ٥ .
(٥) سورة البقرة: الاية رقم ١٣٠ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن معانى الملة اللغوية: الطريقة :

هذا هو المنهج التعليمى كما رسمه القرآن الكريم وبينته السنة لبناء الإنسان المستقيم ذى الشخصية المتزنة المعتدلة .

وكل منهج مخالف لما سطره القرآن يعد شذوذاً عن الجادة يؤدى إلي انحراف في السلوك ..

وأخيراً أقول: فليزن طلاب علم هذا الزمن تعليمهم بهذا المنهج الذى رسمه القرآن الكريم ولينظروا أين مكانهم من فهم القرآن، وماهو حظهم من هدايته؟!!.

أثر التفسير فى بناء الشخصية واتزانها :

ولما كان التأثير يتم بمقدار عظمة المؤثر، ظهر تأثير تفسير القرآن فى بناء الإنسان وشخصته قوياً وكاملاً ويصعب علينا حصر جميع جوانب التأثير في بناء شخصية الإنسان واتزانها واعتدالها، وسأقتصر على بعض الجوانب .

❐ وأقول: إن الاشتغال بفهم القرآن وتفسيره والتفقه فيه يرقق إحساس الطالب ويقوى شعوره، وينمى فيه حب الآخرين، بحيث يجعله يتألم لألمهم ويفرح لفرحهم، ويسعد لسعادتهم .

❐ ومن مبتكرات القرآن في التعبير عن هذا الإحساس، أن جعل القرآن قتل الرجل لغيره قتلاً لنفسه، وجعل إخراج الرجل من داره إخراجاً لنفسه، وجعل ظن السوء بالغير ظناً بنفسه، وجعل لمز الغير لمزاً لنفسه، وجعل السلام علي الغير سلاماً على نفسه، وكل ذلك أراده القرآن في تعبيراته .

❐ قال تعالى فى سياق أخبار بنى إسرائيل: **﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم ولاتخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون، ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم﴾**(١).

---

(١) من الآية رقم ٨٥ من سورة البقرة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فجعل دم كل فرد من أفرادهم كأنه دم حر عينه حتى إذا سفكه كان كأنه بخع نفسه وانتحر ذاته .

قال القرطبى: «ولما كانت ملتهم واحدة، وأمرهم واحد، وكانوا كالشخص الواحد جعل قتل بعضهم بعضاً، وإخراج بعضهم بعضاً قتلاً لأنفسهم ونفياً لها»[١].

قال الشيخ بن عاشور: «ليس المراد النهى عن أن يسفك الإنسان دم نفسه أو يخرج نفسه من داره، لأن مثل هذا مما يزع المرء عنه وازعه الطبيعى... وإنما المراد أن لايسفك أحد دم غيره، ولايخرج غيره من داره»[٢].

❐ ومثل هذا السياق قوله تعالي: ﴿**فاقتلوا أنفسكم**﴾[٣]، ومعناه: فليقتل بعضكم بعضاً بأن يقتل من لم يعبد العجل عابديه، فإن قتل المرء لأخيه كقتله لنفسه .

❐ قال القرطبى: «وأجمعوا على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العجل بأن يقتل نفسه بيده»، ثم نقل عن الزهرى قوله: «أن يقتل من لم يعبد العجل من عبد العجل»[٤].

❐ وقال الله فى سياق هذه الأمة: ﴿**ولاتقتلوا أنفسكم**﴾[٥]. أى لايقتل بعضكم بعضاً، فجعل قتل الرجل لغيره قتلاً لنفسه، قال القرطبى: «أجمع أهل التأويل علي أن المراد بهذه الآية النهى أن يقتل بعض الناس بعضاً، ثم لفظها يتناول أن يقتل الرجل نفسه بقصد منه»[٦].

---

(١) الجامع للقرطبى: ٢/١٩ .

(٢) التحرير والتنوير: ١/٥٨٥ .

(٣) سورة البقرة: الآية رقم ٥٤ .

(٤) الجامع للقرطبى: ١/٣٧٦.

(٥) سورة النساء: الآية رقم ٢٩ .

(٦) الجامع للقرطبى: ٣/١٣٦ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

❐ قال الحافظ بن كثير: «وهو الأشبه بالصواب»[١]. قال الزمخشرى: «شبه الغير بالنفس لشدة اتصال الغير بالنفس فى الأصل والدين، فإذا قتل المتصل به نسباً أو ديناً فكأنما قتل نفسه»[٢].

وقال الحافظ بن كثير: «إن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة»[٣].

❐ وقد بين الله أن من قتل نفساً بغير حق، فكأنما قتل الناس جميعاً، فقال: ﴿**كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً**﴾[٤].

❐ ومن تعبيرات القرآن بالنفس، وإرادة الأخ فى الدين قوله تعالي: ﴿**يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم**﴾[٥].

❐ نقل الفخر الرازى عن عبد الله بن المبارك أنه قال: «هذه أوكد آية فى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فإنه سبحانه قال: ﴿ **عليكم أنفسكم**﴾، يعنى عليكم أهل دينكم ولايضركم من ضل من الكفار، بأن يعظ بعضكم بعضاً، ويرغب بعضكم بعضاً في الخيرات وينفره عن القبائح والسيئات»[٦]، لأن المؤمنين إخوة في الدين .

❐ ومن تعبيرات القرآن بالتفسير وإرادة الغير، قال تعالى: ﴿**فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة**

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/٥٣٤ .

(٢) التحرير والتنوير: ١٨/٣٧٦ .

(٣) تفسير ابن كثير: ١/١٢٩ .

(٤) سورة المائدة: الآية رقم ٣٢ .

(٥) سورة المائدة: الآية رقم ١٠٥.

(٦) تفسير الرازى: ٦/١١٨ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طيبة﴾[١]. والمعنى: فليسلم بعضكم على بعض، وهم أهل البيوت التي يدخلونها لأنهم بمنزلة أنفسهم فى شدة المحبة والمودة والألفة، ولأنهم منكم فى فى الدين، فكأنكم حين تسلمون عليهم تسلمون علي أنفسكم، وقد أنكر الشيخ ابن عاشور على من فهم من الآية أن الداخل يسلم على نفسه وقال: «ولقد عكف قوم على ظاهر هذا اللفظ، وأهملوا دقيقته فظنوا أن الداخل يسلم علي نفسه إذا لم يجد أحداً، وهذا بعيد من أغراض التكليف والآداب»[٢].

أقول: وهو المأثور عن سعيد بن جبير والحسن البصرى وقتادة والزهرى، حيث قالوا: فليسلم بعضكم على بعض»[٣].

□ ومن تعبيرات القرآن بالنفس وإرادة الأخ فى الدين، قوله تعالي: ﴿**ولاتلمزوا أنفسكم**﴾[٤]. والإنسان لايلمز ولايعيب نفسه، وإنما اللامز غيره إشارة إلى أن من عاب أخاه المسلم فكأنما عاب نفسه، فنزل البعض الملموز منزلة نفس الإنسان لتقرير معنى الإحساس بالأخوة وتقوية الشعور بها .

□ ومن تعبيرات القرآن عن الغير بالنفس قوله تعالى: ﴿**لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً**﴾[٥].

□ المراد بأنفسهم هنا، إخوانهم في الدين والعقيدة، فهلا وقت أن سمعتهم حديث الإفك هذا ظننتم بأنفسكم أى بإخوانكم ظناً حسناً جميلاً، إذ لايظن المرء بنفسه السوء، وفى هذا التعبير عن إخوانهم وأخواتهم فى العقيدة بأنفسهم أسمى ألوان الدعوة إلى غرس روح المحبة والمودة والإخاء والإحساس الصادق، حتى لكأن الذى يظن السوء بغيره إنما يظنه بنفسه.[٦]

---

(١) سورة النور: الآية رقم ٦١ .

(٢) التحرير والتنوير: ٣٧٦/١٨ .

(٣) تفسير ابن كثير: ٣٣٦/٣.

(٤) سورة الحجرات: الآية رقم ١١.

(٥) سورة النور: الآية رقم ١٢ .

(٦) الجامع للقرطبى: ١٨٦/٦ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

❐ قال الفخر الرازى: «فجعل الله المؤمنين كالنفس الواحدة فيما يجرى عليها من الأمور، فإذا جرى على أحدهم مكروه فكأنه جرى على جميعهم»(١).

❐ فهذا الأسلوب القرآنى، وهذا الخطاب الربانى يؤكد معنى وحدة الأمة ويحدث فى النفس أثراً حساساً يبعثها على الإمتثال، فالطالب الذى يربى على هذه المعانى، وهذه الدقائق القرآنية، لاشك وأنها تؤثر فيه وتغرس فيه هذا الإحساس، وهذا الشعور .

❐ ومن تدبر هذا الأسلوب القرآنى، علم أنه لاقوام لهذه الأمة إلا بمثل هذا الشعور، وهذا الإحساس، وشعور كل فرد من أفرادها بأن نفسه نفس الآخرين، ودمه دم الآخرين، وظن السوء بهم ظن بنفسه، والسلام عليهم سلام على نفسه، وعيبهم عيب لنفسه .

❐ لافرق فى المحافظة على الروح التى تجول فى بدنه والدم الذى يجرى فى عروقه، وبين الأرواح والدماء التى يحيا بها إخوانه: ﴿**يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة**﴾، وقال ﷺ «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» .

❐ وكل هذه المعانى، وإن كانت كامنة فى القرآن الكريم، فإن التفسير يكشفها ويجليها .

❐ إن الاشتغال بفهم القرآن والتفقة فيه يكون سبباً للطمأنينة والسكينة، ويحصل لصاحبه عز الدنيا وسعادة الآخرة، كما أخبر بذلك المعلم الأول ﷺ: «ومااجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله

---

(١) تفسير الرازى: ١٢: ١٧٨ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده»[١].

❐ وقد دلت التجارب العملية على ذلك، فهذا الرازى ينقل لنا تجاربه فيقول: «وأنا نقلت أنواعاً من العلوم النقلية والعقلية، فلم يحصل لى بسبب شئ من العلوم من أنواع السعادات فى الدين والدنيا مثل ماحصل بسبب خدمة هذا العلم»[٢]. يعنى تفسير القرآن .

❐ وقد نقل هذا النص رشيد رضا، ثم قال مبيناً كلامه: «أى علم القرآن بتفسيره فليعتبر بهذا من يضيعون جل أوقاتهم فى طلب العلوم الدينية بعلوم الكلام وغيرها، ويرجعوا إلي كتاب الله ويطلبون السعادة فى من فيضه دون غيره. ونسأل الله تعالي أن يوفقنا إلي تفسيره»[٣].

❐ ونقل الشيخ الظاهر بن عاشور فى تحريره[٤]، ومصداق ذلك فى كتاب الله: ﴿**وهذا كتاب أنزلناه مباركاً فاتبعوه**﴾[٥].

❐ وقد أدرك هذه السعادة الغامرة الإمام القرطبى، فعزم واستفرغ قوته، ورأى أن يشتغل بالتفسير مدى العمر - رحمه الله تعالي-[٦].

❐ وإن بعض العلماء الذين برزوا فى الدعوة إلى الله وقاموا بنهضة شاملة وإصلاح عام، اعتمدوا في دعوتهم بعد الله علي دروس التفسير، فأثمرت دعوتهم ونالت قبولاً، وأقبل عليها الناس من جميع الأصناف

---

(١) رواه مسلم - رياض الصالحين: ٣٣٣ .

(٢) تفسيرالرازي: ٧/ ٨٥ .

(٣) تفسير المنار: ٧/ ٣٧٠ .

(٤) التحرير والتنوير: ٧/ ٣٧٠ .

(٥) سورة الأنعام: الآية رقم ٥٥ .

(٦) الجامع: ١/ ١٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والطبقات، وأحدثت دعوتهم تغييراً إصلاحياً فى العقيدة والسلوك، وانتشرت فى الشرق والغرب .

❐ وإذا أردنا أن نتجول مع هذا الأثر الحميد فسنجد من بين هؤلاء المبرزين الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى (ت ١٣٧٦هـ) قد اعتمد على دعوته فى نشر التوحيد والإصلاح فى ربوع نجد على تفسير القرآن الكريم، فكان ذا عناية فائقة بالتفسير وفنونه وبرع فيه، فألف ثلاثة كتب فى التفسير وحده: تيسير الكلام المنان فى تفسير كلام الرحمن، وتيسير اللطيف المنان فى خلاصة القرآن، والقواعد الحسان لتفسير القرآن.(١)

❐ وإذا انتقلنا غرباً إلى مصر، نجد الإمام محمد عبده يعتمد فى دروسه على التفسير، فقد ألح عليه تلميذه رشيد رضا أن يلقى دروساً فى التفسير، ويعلل لذلك بقوله: «إن الكلام المسموع يؤثر فى النفس أكثر مما يؤثر الكلام المقروء»، ثم واصل بعده رشيد رضا إلا أن أجله حال دون إكمال التفسير رحم الله الجميع .

❐ وإذا انتقلنا إلى تونس غرباً، نجد الإمام الطاهر بن عاشور يتأثر بمدرسة رشيد رضا فى التفسير، وألف تفسير كاملاً سماه التحرير والتنوير، فحرر الناس من الجهل والظلمات، نور به البلاد التونسية، وإذا إنتقلنا قليلاً إلى الغرب فى الجزائر، نجد الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس قد اقتصر على التفسير في دعوته الإصلاحية الشاملة ابتداء بتحقيق التوحيد وحقوقه إلى محاربة الإستعمار، فقد عكف على تفسير القرآن إلى أن ختمه فى ثلاث وعشرين سنة على مدة التنزيل ولم يختم التفسير رواية ودراية فى الجزائر غيره منذ أن ختمه أبو عبد الله الشريف التلمسانى فى المائة الثامنة، فتعلم الناس منه كل شئ.(٢)

---

(١) مقدمة تفسير السعدى: ص٤ .

(٢) تفسير المنار: ١٢/١ .

(٣) تفسير ابن باديس: ص٣٣ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

□ وإذا عرجنا جنوباً إلى بلاد شنقيط، نجد الإمام محمد الأمين الشنقيطى يفسر القرآن ويسميه أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن .

□ فهؤلاء الأئمة - رحمهم الله - كانوا مجاهدين بالقرآن بتفسيره وبيانه والتفقه فيه، وقد سمى القرآن ذلك بالجهادا لكبير. وقال: ﴿ **وجاهدهم به جهاداً كبيراً**﴾، أى بالقرآن. كما ذكره ابن عباس، وفى هذا منقبة عظيمة لمن يدعوا إلى الله تعالى بالقرآن العظيم وتفسيره وتوضيحه للناس فهو مجاهد[١]. اقتداء بالمصطفي ﷺ حيث أمره الله أن ينذر قومه بالوحى: ﴿**قل إنما أنذركم بالوحى**﴾[٢]. وقال: ﴿**وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ**﴾[٣]. فكل من أنذر الناس بغير هذا الوحى فهو مخطئ .

□ من أهم مايثمره تفسير القرآن والتفقه فيه فى شخصية الطالب التخلص من التعصب والتقليد بل إذا ابتدأ بعد حفظ القرآن بعلم تفسيره وبيانه كما رتبه الله فى قوله ﴿**يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب**﴾ لم يجد هذا الهاجس إلى نفسه سبيلاً، وينتفى، وماوجد التعصب والتقليد إلا بمخالفة المنهج الذى رسمه القرآن في التعليم، وهو التلاوة والتفسير والحكمة والتزكية، كما جاء فى قوله تعالي: ﴿**ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم**﴾[٤].

□ فبمخالفتنا لمنهج التربية والتعليم، كما رسمه القرآن نعلم الطلاب التعصب والتقليد من حيث لاندرى، لذلك نجد كتب التفسير تختلف إختلافاً كبيراً نظراً لكون أصحابها دخلوا باب التفسير بعدما تشيعوا بأفكار ومذاهب ظهرت آثارها فى تفسيرهم، فى حين أن الذى دخل إلى التفسير كما دخله الصحابة والتابعون ومن تبعهم واقتفي آثارهم، ظهرت آثار التفسير فيهم، فالسلف تأثروا بتفسير القرآن، وأثر التفسير فيهم، والخلف أثروا فى التفسير، ولم يتأثروا به .

---

(١) الجامع للقرطبى: ٥٦/٧ .

(٢) سورة الأنبياء: الآية رقم ٤٥ .

(٣) سورة الأنعام: الاية رقم ١٩.

(٤) سورة البقرة: الآية رقم ١٢٩ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

□ فظاهرة التعصب والتقليد لاتمحى ولا تزول إلا بتفسير القرآن وفهمه والتفقه فيه، لأن النظر في القرآن نفسه وفي ألفاظه بالذات يجعل الطالب يأخذ الحكم الذى تدل عليه الآية دلالة قطعية أو الحكم الأقرب إلى نص الآية إن اختلفت فيه أنظار العلماء فيها .

□ في دروس التفسير والتفقه في القرآن يتعلم الطالب الاستقلال في الأخذ والترجيح، وعدم التبعية والتقليد .

□ ومما يدل على استقلال شخصية طالب علم التفسير والتفقه في القرآن مالاحظته عند ابن العربى، مع أنه كثيراً مايتعصب لمذهبه ويحمل على المخالفين إلا أن أسلوب القرآن وروعة بيانه أرغمه في بعض المواضع من أحكامه على عدم التعصب، وعلى ترجيح مذهب المخالفين لمذهبه مبيناً الوجه والسبب، فقال عند قوله تعالى: ﴿وكلوا من ثمره إذا أثمر وءاتوا حقه يوم حصاده﴾[١]. قال: «وقال أبو حنيفة تجب الزكاة في كل ماتنبته الأرض من المأكولات...». ثم تعرض لذكر بقية المذاهب. وصرح بما يخالف مذهبه فقال: «وأما أبو حنيفة فجعل الآية مرآته فأبصر الحق»[٢]. قال القرطبى: «وأخذ يعضد مذهب الحنفي ويقويه»[٣].

□ هذا هو حال من يطلب فقه القرآن لافقه الفقه، وهكذا حال كل من يجعل القرآن مرآته، فإنه يبصر الحق كما أبصره الإمام أبو حنيفة، وابن العربى وغيرهم رحم الله الجميع، ماأحوجنا اليوم إلى أن نجعل القرآن مرآتنا لنبصر الحق والهدى والرشاد.

□ الطالب الذى يتعلم على هذا النمط في التفسير والتفقه في القرآن تكتسب شخصيته اتزاناً واعتدالاً وتكاملاً، ولاينحاز ويميل لأن المصدر الذى

---

(١) سورة الأنعام: الآية رقم ١٤١ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربى: ٢/٧٥٩ .

(٣) الجامع للقرطبى: ٤/٩٢ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يتلقى منه علومه واحداً، فلا يطغى عليه جانب دون جانب، فهو عند آيات الأسماء والصفات يتعلم أسماء الله وصفاته بدون تعطيل ولاتمثيل، وإذا جاء إلي آيات الجهاد تعلم وتفقه فى أحكام الجهاد، وإذا جاء إلى آيات الأحكام تعلم الفقه والأحكام الشرعية، وإذا مر على آيات الفرائض تعلم ذلك، ولاشك، وإذا مر على الآيات المتعلقة بالبر والإحسان تعلم ذلك وتطبع به، وعمل به، وإذا مر علي الآيات التى يذكر فيها أخبارالأمم السابقة وأحوالهم ومآل إليه أمرهم اعتبر بذلك واتعظ، وتعلم قصص الأنبياء والرسل، ومالقوه في سبيل الدعوة إلي الله عز وجل وعلم طرق الدعوة ووسائلها وأهدافها .

❐ وإذا مر علي الآيات التى تدعو إلى التفكر والتأمل والاعتبار بمخلوقات الله الكونية، تعلم طرق التدبر والتفكر فتنمى فيه ملكة التفكير السليم، والنظر السديد، والتصور الصحيح، فينعكس ذلك على سلوكه، لأن سلوك الإنسان فى الحياة مرتبط بتفكيره ارتباطاً وثيقاً يستقيم باستقامته، ويعوج باعوجاجه ويثمر باثماره ويعقم بعقمه، وأفعاله ناشئة عن اعتقاداته وأقواله إعراب عن تلك الاعتقادات .

❐ ومن جهة أخرى، فإن الطالب الذى يتفقه في القرآن يمر على جميع الآيات القرآنية فيتكامل الموضوع لديه، لأن موضوع الآيات ومقاصدها ليست منسوقة فى موضوع واحد، وليست الآيات فى سياق واحد، فنجد أن الآيات مفصولة عن الأولى بجملة من الآيات، وهى فى نفس الموضوع، وقد تكون ناسخة، وقد تكون منسوخة، وقد تكون بياناً وتفسيراً، وقد تكون قيداً وقد تكون إجابة عن شبهة .

❐ والأمثلة على هذا النمط كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿**قل إنما أنا منذر**﴾، الآية ٦٥ فى آخر سورة ص هى جواب لقول كفار قريش في صدر السورة: ﴿**وقال الكافرون هذا ساحر كذاب**﴾ في الآية ٤، وقوله عز وجل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فى آخر السورة: ﴿**وما من إلاه إلا الله الواحد القهار رب السماوات والأرض ومابينهما العزيز الغفار**﴾ فى الآية ٦٦ من سورة ص، هى جواب لقولهم فى صدر السورة: ﴿**اجعل الآلهة إلهاً واحداً**﴾ فى الآية ٥، وقوله جل وعلا فى آخر السورة: ﴿**قل هو نبؤ عظيم أنتم عنه معرضون**﴾ فى الآية ٦٨ من سورة ص هو جواب وتفنيد لقولهم فى صدر السورة: ﴿ **ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا إختلاق**﴾ الآية ٧ من سورة ص، هذا ماوقع فى السورة الواحدة نفسها ..

❐ أما ماوقع الجواب عنه فى غير السورة التى وردت فيها الشبهة فكثير، ومنه قوله تعالى: ﴿**ن والقلم ومايسطرون ماأنت بنعمة ربك بمجنون**﴾ في الآية ٦ من سورة القلم، وقوله تعالى: ﴿**وماصاحبكم بمجنون**﴾ فى الآية ٢٢ من سورة التكوير، فكل هذه الآيات أجوبة تفند زعمهم الباطل كما حكاه القرآن فى قوله تعالى: ﴿**يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون**﴾ فى الآية ٦ من سورة الحجر .

❐ وإذا كان الأمر كذلك، فإن القرآن كالسورة الواحدة، وحينئذ يتكامل الموضوع لدى الطالب ويؤثر فى بنائه العلمى والنفسى.. والله أعلم ..

❐ ومن أهم مايثمره الاشتغال بالتفقه فى القرآن وعلومه وتفسيره الوحدة بين جميع المسلمين وحدة فى الإحساس والشعور، ووحدة فى الوجدان والتفكير، ووحدة فى السلوك والعمل. فتتقارب النفوس وتستقيم وتتعدد نوازعها ومشاربها وتصوراتها لصدورها عن أصل واحد ونبع واحد وهو التفقه في القرآن وعلومه، فيزدادون صلة وداً ومحبة.

❐ ولذلك كان أهل القرون الفاضلة إخوة متماسكين، ولم يكن بينهم هذا التباعد وهذا الجفاء وهذا الإنفصال الذى نراه اليوم بين طلبة العلم من جهة، وبينهم وبين أساتذتهم من جهة أخرى .

❐ تفسير القرآن وفهمه يساهم مساهمة فعالة ترى آثارها بادية فى بناء الشخصية السوية المعتدلة، لأن القرآن يتضمن علوماً كثيرة ومنوعة ومكررة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بمختلف الأساليب، وكل واحد منها يغذى جانباً من جوانب الشخصية مع المحافظة على التوازن والتكامل، لأن نظرة القرآن الكريم إلى الإنسان نظرة شاملة تغطى جميع مجالات حياة الإنسان .

□ ولما كانت الوسطية من مزايا هذه الأمة حث عليها الشرع وقررها القرآن ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾[١]، كان لتفسير القرآن وفهمه والتفقه فيه أثر قوى لاينكر فى تحقيق صفة إعتدال الشخصية وإتزانها .

□ وقد تحددت دراسة العلوم الإسلامية المفصولة عن القرآن الكريم إنفصالاً فى بعض جوانب الشخصية، فقد يتعلق بعضهم بالفقه فقط، والآخر بالحديث، وبعضهم بالعقيدة، وكل هذه العلوم هى بعض مما تضمنه القرآن وهى جزء من التفسير .

□ وقد يكون الاقتصار عليها يؤدى بصاحبه إلى الميل والشطط والغلو والتعصب، وقد حصل شئ من هذا، وكل مانراه من فروق واضحة بين الطلبة يرجع إلى الاختلاف بينهم فى تخصصات مفصولة من القرآن، وإن كانت تعتمد علي القرآن، فالفصل وحده كاف لإحداث هذا، ثم لايستطيع الإنسان أن يجزم بأن هذه الآية في الأحكام، وهذه فى العقيدة، وإذا كان أولها فى الأحكام وآخرها فى العقيدة ماذا يفعل؟

□ ولذلك لم تنضبط آيات الأحكام عند العلماء[٢]، وكان من الموفقين فى ذلك الإمام القرطبى، سمى كتابه الجامع لأحكام القرآن، وفسر القرآن كله، ولم يستغن عن بعضه، ولم يستطع أن يسلخ منه هذه الأحكام، كما فعل أبو بكر الجصاص، وابن العربى، ثم الفصل وحده كاف لإسقاط بعض المعانى والربط وحده يتضمن أحكاماً. قال الرازى: «إن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»[٣].

---

(١) سورة البقرة: الآية رقم ١٤٣ .

(٢) الإتقان: ٢/ ٢٨٠.

(٣) تفسير الرازى: ٥/ ١٤٦ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

❐ فالذى يقضى على مظاهر الإنحراف والغلو والشذوذ هو الاشتغال بالقرآن فهماً وتفسيراً وتفقهاً ..

❐ ومما يؤخذ على من يقتصر علي موضوع واحد ومادة واحدة أو تخصص واحد أنه ينعزل وينغلق علي ماحبس نفسه له، وانزوت شخصيته فى دائرة ضيقة من علوم الإسلام، وبالتالي تنحصر علاقته بالأمة فى أشخاص معدودين، وتقلصت مودته إلي العدد القليل من الناس، ولم تكن له مشاركة ولامساهمة عفوية مع الآخرين، وبتر نفسه من جميع بقية فروع المعرفة وعلوم التنزيل التى حواها كتاب الله .

❐ تفسير القرآن وفهمه والتفقه فيه يصل أصحابه بأصحاب التخصصات العلمية الأخرى، ويرتبط بجميع أصناف الناس وطبقاتهم، ويطمئنون للأخذ عنه والاستماع إليه، لأنه لايعلم فناً معيناً بعينه، ويستطيع أن ينشر عقيدة التوحيد على أوسع نطاق من خلال دروس التفسير .

❐ انفصال المواد الدراسية على إطلاقه ليس من طبيعة هذا الدين، ولامن شأن عمل السالف الصالح، فإنهم كانوا يأخذون بالقرآن كلاً لايتجزأ، فلابد من ربط كل هذه العلوم، وهذه المواد الدراسية بالقرآن الكريم، ولايحقق هذه الغاية إلا تفسير القرآن والتفقه فيه دون سواه، فهو وحده الكفيل بتحقيق شمولية التربية والتعليم من جميع النواحى .

❐ ولم يكن للصحابة - رضى الله عنهم - كتاب يدرسونه، وكلام محفوظ يتفقهون فيه إلا القرآن وماسمعوه من نبيهم ﷺ، ولم يكونوا إذا جلسوا يتذاكرون إلا فى ذلك .

❐ فخلف من بعدهم خلف قوم يقرأون القرآن ولايفهمونه، وآخرون يتفقهون فى كلام غيرهم ويدرسونه، وآخرون يشتغلون في علوم أخرى وصنعة اصطلاحية.(١)

---

(١) انظر الصواعق المرسلة: ص٤٤٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

❐ قال الشيخ عبد الرحمن النحلاوى: «فانفصال المواد الدراسية ليس من طبيعة الثقافة الإسلامية، ولامن شأن التربية الإسلامية التى تأخذ بالإسلام كلاً لايتجزأ، وتعتبر كل العلوم التى انبثقت عنه ماتزال وظيفتها توضيح الشريعة الإسلامية والحفاظ عليها، فلابد من ربط كل هذه العلوم بهدف التربية الإسلامية»[١].

❐ إن فصل المواد الدراسية من القرآن والسنة بمرور الزمن قد ينسى ربطها به، ويتقرر فى أذهان الناس استقلالها، وحينئذ يدخلها إجتهادهم واستحسانهم بالتغيير والتبديل والإضافة.

❐ ومن السمات البارزة عند بعض أهل الفرق أنهم لايفسرون القرآن كله، ولايتتبعونه آية أية، لأنهم إن فعلوا يصطدمون بالآيات المحكمات التى تناقض مذهبهم وهواهم، فيسلكون مسلك الانتقاء والاختيار، ومن فسر القرآن كله منهم كالزمخشرى من المعتزلة والطبرسى من الشيعة وغيرهم، فإنهم يوجهون الآيات التي تصادم مذهبهم بالتأويل ويسلكون في سبيل ذلك كل مسلك انتصاراً لمعتقداتهم، فهم من باب قول الحق تبارك وتعالي: ﴿**إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شئ**﴾[٢].

❐ قرأ الجمهور: ﴿**فرقوا دينهم**﴾ من التفريق، وهو الفصل بين أجزاء الشئ الواحد، وجعله فرقاً وأبعاضاً، وقرأ حمزة والكسائى (فارقوا) من المفارقة للشئ وهى تركه والإنفصال منه، وهى تفيد أن تفريق الدين قد يستلزم مفارقته لأنه واحد لايتجزء، ومن التفريق الإيمان ببعض الكتاب دون بعض ولو بالتأويل وترك العمل.[٣]

❐ والدين لايتجزأ، وقد قال الله تعالي: ﴿**أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض**﴾[٤]. وقال: ﴿**كما أنزلنا على المقتسمين**

---

(١) الإسلامية: ص٢٥٢.

(٢) سورة الأنعام: الآية رقم ١٥٩.

(٣) انظر المنار: ٨/٢١٤.

(٤) سورة البقرة: الآية رقم ٨٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الذين جعلوا القرآن عضين﴾[١]. وقال: ﴿**ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا﴾**[٢].

❐ قال محمد حسين الذهبى: «إن الباطنية لايفسرون القرآن كله لأنهم يصدمون بآيات محكمات ترد مذهبهم»[٣].

❐ وقال فى بيان موقف الخوارج من التفسير: «لايأخذون من القرآن إلا بقدر ماينصر مبادئهم ويدعو إليها، ومارأوه يصادم مذهبهم حاولوا التخلص منه بصرفه وتأويله»[٤].

❐ وقد لجأ بعضهم إلى المتشابه لغرض نصرة المذهب الفاسد، كما نص على ذلك القرآن المجيد فقال: ﴿**فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله﴾**[٥].

❐ أهل الزيغ والضلال يفزعون إلى المتشابه الذى بواسطته يمكنهم أن يلبسوا به، ويصرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها[٦]. ومادخلت البدع في دين الله إلا بسبب التعلق ببعض الآيات وإهمال الآيات الأخرى أو سوء فهم لها.

❐ فالمعتزلة تعلقوا بقوله تعالى: ﴿**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾**[٧].

---

(١) سورة الحجر: الآية رقم ٩١.

(٢) سورة النساء: الآية رقم ١٥٠.

(٣) التفسير والمفسرون: ٢/ ٢٦٠.

(٤) التفسير والمفسرون: ٢/ ٣٥.

(٥) سورة آل عمران: الآية رقم ٧.

(٦) تفسير ابن كثير: ١/ ٣٧٠.

(٧) سورة الكهف: الآية رقم ٢٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأثبتوا حرية الإنسان، قالوا إنه خالق لأفعاله، ونفوا صفة الكلام لله رب العالمين.

❐ وتعلقوا بقراءة شاذة: ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾[١]. فجعلوا موسى هو الفاعل المتكلم، وأغمضوا أعينهم عن القراءة المجمع عليها: ﴿وكلمه ربه﴾[٢].

❐ ويقابلهم الجبرية فتعلقوا بقوله: ﴿وماتشاءون إلا أن يشاء الله﴾[٣].

ونفوا نسبة الأفعال التى صدرت عنه، وقالوا: «الإنسان مجبور وعطلوا الأمر والنهى».

والكرامية لم ينظروا فى باب الإيمان إلا فى قوله تعالى: ﴿فأثابهم الله بما قالوا﴾[٤]. وقالوا: «الإيمان قول باللسان فقط دون تصديق ولاعمل».

قال القرطبى: «وهذا منهم قصور وجمود وترك نظر لما نطق به القرآن والسنة»[٥].

❐ وهكذا حال من تعلق ببعض الكتاب دون بعض، وهو انحراف خطير فى الفكر وشذوذ فى التفكير واعتلال فى الشخصية أوجبه الاقتصار على بعض الآيات دون بعض.

❐ قال رشيد رضا: «وفهم القرآن لايكون صحيحاً إلا بالجمع بين الآيات المتقابلة فى الموضوع الواحد الذى يختلف التعبير فيه»[٦].

---

(١) سورة النساء: الآية رقم ١٦٤.
(٢) سورة الأعراف: الآية رقم ١٤٣.
(٣) سورة الإنسان: الآية رقم ٣٠.
(٤) سورة المائدة: الآية رقم ٨٥.
(٥) الجامع للقرطبى: ١٨٨/١.
(٦) المنار لرشيد رضا: ١٣٢/٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

❐ وإزاء هذا وذاك، وفق الله المنتسبين لأهل السنة والجماعة فى تفسير القرآن بالشمولية والاستيعاب لجميع الآيات القرآنية كلها، ولايقتصرون على بعضها للاستفادة منها، ومن ثم لم يكن عندهم هذا الشطط وهذا الانحراف وهذا الشذوذ .

❐ فالتفسير وفهم القرآن وحده هو الذى يقضى على ظاهرة التفرق والتحزب والانتماء إلى فكر معين وتخصص معين، فمدرسة التفسير تذوب فيها جميع الفوارق فإن سفينة التفسير تجرى على اليبس .

❐ فإنى أتصور الطالب وأتخيله بعبد يملكه شركاء مختلفون وهو بينهم موزع، ولكل منهم فيه توجيه، وعليه تكليف، وهو بينهم حائر لايستقر على نهج، ولايستقيم على طريق، ولايملك أن يرضى أوامرهم المتعارضة التى تمزق اتجاهاته وقواه، وهذا واضح جلى في طلاب الجامعات التى لاتلتزم بشرع الله .

❐ وأتصوره وأتخيله بعبد يملكه سيد واحد، وهو يعلم مايطلبه منه ويكلفه به وهو مستريح مطمئن مستقر على منهج واحد، وهذا واضح جلى فى طلاب الجامعات التى تلتزم بمنهج القرآن الكريم .

❐ ولاشك أن الذى يتلقى علومه وفقهه من القرآن الكريم ولاسبيل إلى ذلك إلا بالتفسير يخضع لهذه المادة ويتعلم منها فتربطه بالقرآن فينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين وتجمع الطاقة ووحدة الاتجاه ووضوح الطريق، فينشأ سوى الشخصية متزناً معتدلاً .

❐ والذى يتعلم هذه العلوم منفصلة عن القرآن، ومن أشخاص مختلفين، فإنه يتأثر بذلك لأن كل أستاذ يلقنه غير الذى يلقنه الآخر، وكل منهم يريده أن يكون على طريقته ومنهجه، فينعكس ذلك على شخصيته ويتشتت ذهنه، وربما يحدث فيه شذوذاً عن الجادة .

لذا يتأكد على رجال التربية والتعليم أن يكثفوا من مقررات التفسير.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

❑ لم أر علاجاً أنفع لهذه الأمة كفهم القرآن وبيانه وتفسيره، وإن الأمة اليوم تحفظ القرآن وترده صباحاً ومساءً، ولكن لاتفهمه، بينه وبينهم غيوم كثيفة وحجب وعوائق، ومن أهمها وأشدها كثافة ضعفهم فى علوم اللغة العربية التى نزل بها القرآن، كيف ندعو الناس إلى الهداية والرشد، وهم لايفهمونها ولايفهمون مصدرها، ولو فهموا مافيه من الأحكام والحكم ومافيه من الأسرار واللطائف لتملكهم القرآن وجرهم إليهم جراً كما جر بعض كفار قريش إلى الاستماع إليه فى الليالى المظلمة، وكانوا يدفعون تأثيراته باللغو: ﴿**وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون**﴾ فكانوا مغلوبين .

❑ المطلوب منا أن نفسر القرآن ونوضحه ونبينه فقط، وفى ضمنه نتعلم الأحكام والحكم والفقه والعقائد والأخلاق وكل شئ مما يحتاجه الإنسان لسعادته فى الدنيا والآخرة .

❑ بيان القرآن وفهمه هو الكفيل - بإذن الله - لهداية هذه الأمم الضالة، وجميع أصناف الناس على مختلف مشاربهم يجدون فى علم التفسير مايروى الظمأ ومايشبع الرغبة، ومايعدل السلوك، ومايظم الغرائز والدوافع ويقوى الإيمان ويصحح الإتجاه .

❑ والطريقة الوحيدة التى يستطيع بها الأستاذ أن يبلغ بها شرع الله كاملاً غير منقوص، هو علم التفسير فليمتط من أراد الرشد سفينة التفسير إن سفينته تجرى على اليبس .

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل ،،

دكتور

أحمد بن أحمد شرشال

أستاذ التفسير - كلية الشريعة

جامعة الكويت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فهرس المصادر والمراجع

١) الإتقان فى علوم القرآن، لجلال الدين السيوطى، ط مكتبة دار التراث، القاهرة .

٢) آثار عبد الحميد بن باديس، منشورات وزارة الشئون الدينية بالجزائر، قسنطية .

٣) أحكام القرآن الكريم لأبي بكر محمد بن العربي، ط، دار الكتاب، بيروت- لبنان .

٤) بدائع التفسير لابن قيم الجوزية جمع يسرى محمد، ط، دار المعرفة، بيروت.

٥) تفسير القرآن العظيم للإمام عماد الدين إسماعيل بن كثير، دار المعرفة، بيروت.

٦) التفسير والمفسرون للشيخ محمد حسين الذهبى، ط، مكتبة وهبة، القاهرة.

٧) التفسير الكبير للإمام محمد الرازى فخر الدين، ط، المكتبة التجارية، بيروت .

٨) تفسير التحرير والتنوير للإمام الطاهر بن عاشور، ط، الدار التونسية، تونس .

٩) تفسير المنار للإمام محمدرشد رضا، ط، دار المعرفة - بيروت .

١٠) جامع البيان فى تأويل آى القرآن للإمام أبي جعفر الطبرى، ط، المعارف، القاهرة .

١١) جامع البيان في تأويل آى القرآن للإمام أبي جعفر الطبرى، ط، المعارف، القاهرة .

١٢) الجامع لأحكام القرآن للإمام أبى عبد الله القرطبى، ط، دار الكتاب، بيروت .

١٣) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز الحنفي، ط، مكتبة المعارف، بيروت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١٤) الصواعق المرسلة لمحمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، دار العاصمة، الرياض .

١٥) غاية المريد فى علم التجويد لعطية قابل نصر، ط، مكتبة الحرمين، الرياض .

١٦) فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير لمحمد بن على الشوكانى، ط، المكتبة التجارية، مكة المكرمة .

١٧) فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى، ط، المكتبة السلفية، القاهرة .

١٨) المكتفي فى الوقف والابتداء للإمام أبي عمر والدانى، ط، مؤسسة الرسالة، سوريا .

١٩) معارج القبول بشرح سلم الوصول للشيخ حافظ حكمى، دار الكتب العلمية، بيروت .

٢٠) مناهل العرفان فى علوم القرآن للشيخ عبد العظيم الزرقانى، ط، دار الكتب العلمية، بيروت .

٢١) النشر في القراءات العشر للحافظ ابن الجزرى، ط، دار الفكر، بيروت .

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رقم الإيداع
٩٩/٦٨٤٤

التركى للطباعة- طنطا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner